الأدب واللغة

من الكائنات الحية

للأديب محمد عثمان الصمدى

— ٣ —

كان هذا كله لأن الذوق الأدبى كان قد تعقد وأصبح موضوعيا إلى أبعد حد ، فلا يرضى إلا عن الخصب والغزارة . وهو لهذا يضغط المعانى حين يتذوقها أو يتفهمها ضغطا شديدا . ويختصرها نافيا منها مالم يكن فى الجوهر مااستطاع إلى ذلك سبيلا. وقد يكون من الملائم هنا أن نلم بقول للجاحظ إزاء بيت من شعر أبى نواس وهو فى وصف كأس

قرارتها كسرى وفى جنباتها . مهاً تدريها بالقسى الفوارس

قال : «نظرنا فى شعر القدماء والمحدثين فوجدنا المعانى تقلت . ورأينا بعضنا يسرق من بعض إلا قول عنترة (وخلا الذباب بها فليس يبارح) وقول أبى نواس (قرارتها كسرى) الخ البيت »

وليس يعنينا من قول الجاحظ أسرق المحدثون من القدماء أم لم يسرقوا .. بقدر ما يعنينا نظره إلى المعانى . فهى مهما تلونت وتشكلت وظهرت فى أثواب وصور مختلفة متباينة فلن يحول ذلك كله بينها وبين رجوعها إلى مصادرها . أو بينها وبين ذوى قرباها وكل ماتمت إليه بسبب قريب أو بعيد . وما من شك فى أن ليس للجاحظ وأمثاله من المثقفين مصدر يحملهم على هذا النظر إلى المعانى إلا ما أشرنا إليه من قبل من الفهم الإجمالى . هذا مع اعتقادنا أن الجاحظ قد أسرف إسرافا شديدا حين عزاها كلها إلى النقل والسرقات

وكذلك روى أن راوية مسلم بن الوليد وفد على يزيد بن مزيد بقصيدة مسلم المشهورة التى مطلعها

لاتدع بى الشوق إلى غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد

فلم يسمح له حاجب يزيد بالدخول . ولكنه عاد فاشترط قبل أن يسمح له بالدخول على يزيد أن ينشده القصيدة . وكان كما قيل للحاجب أدب وفهم . فأنشده القصيدة أو شيئا منها ثم أذن له

ويهمنا فى هذا الخبر أن نتبين إلى أى مدى قد مجت الأذواق والأسماع الكلام المكرور . أو بعبارة أدق قد مجت المعانى المكرورة فى أثواب غير الأثواب ، وفى صور غير الصور . فهى لاتخدع بما تعرض فيه المعانى من تغيير للوزن والقافية . ومن تلوين وتصوير . ولكنها كما قلنا تفهم ما يلقى إليها على وجه الإجمال ، فإن ظفرت بالطريق المبتكر على هذا النحو فى الفهم كما ظفر حاجب يزيد فذاك ، وإلا فلا

وقد كان بودى أن أنقل طرفا من النثر الفنى لذلك العصر . ولكنى أجتزئ بالتنويه إلى أنه موجز شديد الإيجاز ، قد اصطنعت كل الوسائل الفنية لضغطه وتركيزه ووجازته ، حتى ليبدو غامضا أو كالغامض فى كثير من الآثار . وهو لهذا منطق الأديم باهته لا يترقرق عليه ماء . وليس من شك فى أن ما آل إليه النثر الفنى هو طور طبيعى ، وأثر من آثار استجابته للحياة ككل كائن حى يتأثر بها ويؤثر فيها . ونحو هذا تحديد بعض المعانى على ضوء المعرفة النحوية ، كما تقول حين تريد التعظيم : « إنا أرسلنا إليك الكتاب » وقد كان حسب المرسل إليه أن يفهم أن الكتاب قد صار إليه والسلام . ثم لا يعنيه التعظيم فى كثير ولا قليل ، بل لم يكن يخطر له على بال . ولقد رأينا من أجل ذلك عالما كبيرا كابن قتيبة يشكو أحر الشكوى مما انتهت إليه اللغة فى

لقد ازدحمت المكتبة العربية بسيل جارف من الكتب الإسلامية التى تناقش الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية على ضوء القرآن ؛ فلماذا التهمها القراء فى نهم واشتياق ، فتعددت طبعات الكتاب الواحد عدة مرات ؟ ولماذا خرس دعاة الإثم من الكتاب فلم نعد نسمع بمن يكتبون عن « كبرياء الحب » « ومأساة قلب » « والموجة العذراء » ؟

إن المستقبل للاسلام دون نزاع ، فمن شاء أن يلحق بالركب المجاهد فليحمل قلبه فى سبيل العزة والحرية والإيمان ، فما قريب ستبدد الغيوم ، ويشرق النور المتألق ، «ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »

محمد رجب البيومى

ذلك العصر . ثم يؤلف للناس ما ينفعهم فى هذا السبيل ، وما يقوم من أيديهم وألسنتهم ، وما يبصرهم بدقائق اللغة ، ويحدد لهم بعض ما فى مفرداتها من فروق . وحسبنا أن نشير إلى هذه العبارة له حيث يقول:

فإنى رأيت أكثر (١) أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين . ولأهله كارهين . أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم . والشادى تارك للازدياد . والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجدودين ، ويخرج عن جملة المحدودين

ولفظة الأدب فى عبارة ابن قتيبة تعنى اللغة وعلومها . فلم يكن لفظ الأدب قد تطور إلى ما نفهمه منه فى عصرنا الآن . وكذلك لم يكتف ابن قتيبة بما عاب به أهل زمانه من جهل باللغة وعلومها ، بل عاب به أيضا : الأدباء وكتاب الدواوين . وأولئك كما يقول الجاحظ خير ممن سواهم علما وبصرا وكتابة .. قال ابن قتيبة :

«فأبعد (٢) غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف . وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينة أو وصف كأس »

وكذلك يقول فى كتاب الدواوين أيضا :

« وأى (٣) موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه . وارتضاه لسره . فقرأ عليه يوما كتابا وفى الكتاب (ومطرنا مطراً كثر عنه الكلأ) فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلأ . فتردد فى الجواب وتمتر لسانه ثم قال : لا أدرى » نعم ضعف العلم العام بمدلولات اللغة ، وأصبح الناس يفهمون مايلقى إليهم على وجه الإجمال ، ذلك لأن العقل كان قد سيطر على مصاير النثر والنظم . فهو قد هضم كثيرا من ألوان الثقافات ، بل لقد أصبح خالقا لها بالقدر الذى أهله له تطوره وسموه بالقياس إلى ما أتاحته له الأنظمة الدينية والسياسية والاجتماعية من حرية وانطلاق . ولقد بلغ من سيطرة العقليات على النفوس أن صار التشدق بمصطلحات الفلسفة والنطق فى الأندية والمجتمعات ظرفا وكياسة . وليس ذلك فحسب؛ بل لقد أراد أصحاب المنطق إلى الشعراء أن يشعروا على نحو من حدود الفلسفة والمنطق . هذا وليس رد البحترى على أولئك النفر بمجهول لدى أحد من الباحثين والأدباء . ومن قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن جده كذبه

وبالرغم من البحترى ، وبالرغم من كل شئ سرت العقليات إلى الشعر سريانا قويا . حتى ليبدو شعرا بن الرومى فى عمومه رواسب عقلية تارة . وجدلا كلاميا تارة أخرى . والبحترى نفسه وهو أعظم (موسيقار) فى الشعر خلص العقل إلى أدبه فى أماديحه الضعيفة التى كان يلفقها لأولئك الذين ليست لهم مآثر خليقة بالذكر والتسجيل . فقد كان يستمدها من العقل حينا ، ومن التراث الأدبى حينا آخر . وهو مالا نجد له مثيلا فى نضوب الروح فيما سلف من شعر أموى على نحو عام . ورأيى — ولعله أن يكون من الغرابة بمكان فى أنفس بعض الناس — أن أماديحه فى الخلفاء بوجه عام أضعف من مثيلاتها فى القواد والحكام وملوك الأطراف

وعدا هذا فقد كانت له تأملات شعرية يغلب عليها العقل الخالص دون سواه ، ومنذ أن استأثرت العقليات بالسيطرة على الأفئدة والنفوس ، تطلع الناس إلى آفاق من المعرفة لم تكن معروفة من قبل . وهذا طور تتحجر معه اللغة ، وينظر إليها على أنها وسيلة وليست غاية من الغايات . ولا تبقى لها منزلة الغاية إلا فى أنفس المختصين أمثال ابن قتيبة ومن لف لفه من اللغويين والنحاة . وأحب ألا يفهم أحد أن اللغة قد اندثرت وأصبحت أثراً من الآثار فى ذلك العهد . كلا . فما إلى هذا أردت ، وإنما أقصد إلى سنة التطور، وإلى أن تيارين من المعرفة قد تمارسا فأيهما كانت روافده أقوى ، ودوافعه أشد ، كتب له الظفر ، وأصبح سمة من سمات العصر يتميز بها من سائر العهود والعصور. وقد كان إلى جانب اللغويين والنحاة تلك البيئات الأرستقراطية التى انحدرت من أصول عربية خالصة . فهى تعمل على المحافظة على تراث العرب وإنمائه لأنه من مقومات الشخصية العربية فى ذلك الحين . وإن لم يحل بينها وبين الأخذ بأسباب الحياة الجديدة فى ذلك الحين أيضاً .

ولكن هذا شئ وروح العصر شئ آخر

(١) أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٠
(٢) أدب الكاتب نفسه ص ٢
(٣) أدب الكاتب أيضا ص٦

ومازال العقل يقوى سلطانه ويشتد ، حتى ينتهى الأدب إلى شيخوخته فى العهد العباسى الثانى . وهنا يتغلغل العقل والفلسفة فى الأدب تغلغلا تاما ، إذ أنه كان قد تمثل ما هضم من الثقافات ، وأحالها إلى أثر من آثاره . ويكفى أن ننظر إلى أبى الطيب المتنبى وإلى أبى العلاء المعرى فهما مظهران صحيحان لذلك العصر . وإنما كانا كذلك لأنهما الشاعران اللذان تثقفا بثقافة العصر تثقفا تاما . نعم يكفى أن ننظر إلى هذين الشاعرين لنرى إلى أى مدى تأثر الإنتاج الأدبى بالعقل والفلسفة . وهنا نقطة التحول كما يقولون . وأقف لأسأل القارئ هذا السؤال : إلى أى طور كان يمكن أن يتطور إليه الأدب بعد أن بلغ هذه المرحلة؛ مرحلة العقل ؟ أما أنا فأرى أنه قد أدركته الشيخوخة ، وما بعدها غير الموت . فالشعر وهو أعظم مظهر له لا يحتمل من الماطلات العقلية أكثر مما أحتمل على يدى أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء . ولولا ما كان للدين من سلطان لكان من المحتمل أن يتطور الشعر فيه إلى الملحمة . ولكنه لم يقع ، لأن الملحمة أرقع ماتكون حين تستمد موضوعاتها من الأساطير الوثنية تعالج عليها كثيراً من مشكلات النفوس والعقول والاجتماع فى مختلف البيئات والطبقات . وقد قال باحث أن رسالة الغفران للمعرى ضرب من الملحمة على نحو من الأنحاء . ولكن مع هذا هل استطاعت رسالة الغفران التخلص من أغلال الدين ؟ من الحق أنها لم تستطع . وما كان لها أن تستطيع

وإلى هنا نرى من الخير أن نشير إلى ما قاله الباحث الذى ألممنا به فى أول البحث . وهو أن الأمة لم تبال بما رزئت به الدولة من تدهور سياسى فى القرن الرابع الهجرى . وأنا أيضاً أقرر أنها لم تبال . ذلك لأن شعلة الأدب لم تكن قد انطفأت بعد . ولأنها كما قلنا كائن حى لم يكن قد استنفد حياته . ولم تكن شعلة هذه الحياة قد أتت على كل ما قدر لها من وقود . بل ربما كانت أشد توهجا مما كانت عليه فى العهد السابق . شأنها فى ذلك شأن الخفقة الأخيرة فى السراج

ولقد يبدو لقصيرى النظر أن تعليلنا هذا بسيط بل ساذج . ولكنهم لو ذكروا أن الأدب كائن حى كما بينا آنفا لبدا لهم غير ما يظنون . ونحن ما سقنا هذا البحث من أوله إلى هذه المرحلة ؛ وما طرأ على الأدب فى أثناء ذلك من تحول وتطور ، إلا ليكون كله تعليلا لها . ولننتهى آخر الأمر إلى ما انتهينا إليه من نتائج طبيعية محتومة ليست فى حاجة إلى تعليل ولا تحليل . وإلى هذا فقد كان أمام الأمة طور لم يفض بعد إلى غايته ، وهو طور الفقه فيها وفلسفتها وتدوينها على نحو أوسع شمولا وإحاطة

ومما يزيدنا يقينا بأن الأدب لذلك العهد فى الخفقة الأخيرة ما نراه عند شعراء البيئات العربية الموسومة بالمحافظة وعند أشياعها من منازلة لبعض الألفاظ الآنوية . وإحساسها بها إحساساً شعريا خاصا . وهو طور الشادى المبتدئ الذى يرى فى بعض ألفاظ الأمة رنينا وسحراً أخاذاً قويا . أما الفحل فيرى اللفظ مهما عذب وحسن موقعه فى السمع فإنه يستمد قوته وجماله من السياق . وأجدر هؤلاء المنازلين للألفاظ بالذكر فى نظرنا الشريف الرضى . ولننظر إلى بيته التالى

يا قلب ما أنت من نجد وساكنه خلفت نجداً وراء المدلج السارى

فإن نجدا وساكنه والمدلج والسارى كلها ألفاظ لها إيحاءات خاصة بالشريف الرضى وبأمثاله من الشعراء . ولكن البيت برغم هذا كله قوى رائع . ومصدر روعته فيما أرى أنه حقق المزاج العربى ، وما يهدف إليه من شجو وشجن . وإلى هذا فقد حقق غنائية النظم أيضاً . وليست هى غنائية الفطرة والسليقة التى ألمنا إليها فى العصر الأموى . وقد يقال إن الشريف الرضى يرى من وراء الألفاظ إلى مدى أبعد مما نقول. وقد يقال إنها عناصر التقليد المنحدرة من التراث الأدبى القديم . وقد يقال غير هذا وذاك . ولكن بشىء من التدقيق لا يسعنا آخر الأمر إلا أن نسلم بما نوهنا به . وقد قلنا من قبل إن الشعر فى العهد العباسى الأول كان فى عمومه مجرد فن فقط . وفى العصر الذى نحن بصدده قد تطور هذا الفن . وما ظنك بشاعر يقول مقطوعة من الشعر فى الغزل ليست بالقصيرة ، ثم لا تخرج منها بشىء إلا أن الشاعر يريد أن يقول لمن ينازله (أنت قمر) . وأنا أفهم أن هذا من أغراض الفن. ولكنه تطور على كل حال . وما بعد ذلك غير التفكك والانحلال. وانتقال الشعلة من أيدى الأدباء والشعراء إلى أيدى المفكرين والفلاسفة

أما بعد . فهذا رأيى أسوقه لوجه الحقيقة كما أعتقد . غير مبال سخط الناس أو رضوا ؟

تمت

محمد عثمان المصرى